مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٣) العدد (٢)
الإصدار التاسع
٢٠٢٢ (٢٤٧-٢٢٤)

ما أقره الإســـــــلامُ من أمـــــــــــــورِ الجـــــــــاهلية دراسة موضوعية في القرآن والسنة

د. وائل مُحيي الدين الزَّرْد
الأستاذ المساعد في الحديث النبوي الشريف وعلومه،
الكلية الجامعية للعلوم المهنية والتطبيقية، فلسطين، غزة
البريد الإلكتروني: wzard@ccas.edu.ps

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٩ يونية ٢٠٢٢م

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

الملخص

كان الناسُ في ضلال مبين، يوم كان الوحيُ منقطعًا والنبوةُ معدومةً، يومها نظر اللهُ إلى أهل الأرض فمقتهم عربَهم وعجمَهم إلا بقايا من أهلِ الكتاب، مقتَ اللهُ الخلقَ لسوءِ أخلاقِهم وقبحِ فعالِهم، حيث كانوا يعبدون الأصنامَ ويسجدون للأوثانِ، كانوا يأكلون الميتة والخنزير ويشربون الخمر والدم، ومع أنهم –وُصِفوا بالجاهلية– إلا أنَّهم بَقيتْ فيهم بقيةٌ من خير، وقليلٌ من الأخلاق، فما اختارهمُ اللهُ – سبحانه وتعالى– لحملِ أعباءِ الرسالةِ إلا لصفاتٍ فيهم لم تكن في غيرهم من الأمم. وقد جاءت هذه الدراسة لتظهر ما أقره الإسلام من أمورٍ خيِّرة كانت في الجاهلية، مشتملة هذه الدراسة على: **المبحث الأول**: مفهوم الجاهلية، **المبحث الثاني**: ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم، **المبحث الثالث**: أمور الجاهلية التي أقرها الإسلام، **ومن أهم النتائج** التي توصلت إليها: أن السنة النبوية مليئة بالنصوص التي تعرض صورة تفصيلية لحالة العرب قبل الإسلام، وأنه لا يخلو مجتمع من سُوء وحُسن، وأن العرب بقي فيهم بقية من خيرٍ أقرهم الإسلام عليها؛ ومن ذلك: بقاء شيء من إيمانهم بربوبية الله –سبحانه، وبقاء أصل الشعائر: كالحج والصلاة والصيام، إلى جانب بعض الأخلاقيات الحسنة التي امتدحها الإسلام وأقرهم عليها، ومن النتائج أيضًا: وجوب البناء على ما في العالم الغَربي اليوم من –أخلاق حسنة– يمكن أن يُبنى عليها أثناء دعوتهم إلى الله.

الكلمات المفتاحية: الجاهلية

Abstract

People were in deep delusion, on the day when the revelation was interrupted and the prophet hood was non-existent. On that day, Allah Almighty abominated the people of the earth, the Arabs and the non-Muslims except the some of the People of the Book. Allah- Glory be to Him - abominated them for their bad morals and actions. They used to worship idols and prostrate themselves to idols. They used to eat dead meat, pigs and drink wine and blood. Even though - they were described as Jahiliyyah (The Pre-Islamic Era) - still good intentions remained in them, besides some good morals. Allah Almighty did not choose them to carry the burdens of the message except for attributes in them that were not in other nations .This study came to show what Islam approved of good things that were in the Jahiliyyah. This study includes: The first topic: the concept of Jahiliyyah, the second topic: Do not underestimate people their things, the third topic: the matters of ignorance approved by Islam. Among the most important results that this study concluded: that the Prophet's Sunnah is full of texts that show a detailed picture of the condition of the Arabs before Islam, and that no society is free from bad and good, and that the Arabs remained in them of the rest of the good that Islam approved. And that includes: the survival of some of their belief in the divinity of Allah - glory be to him - and the survival of the principle of rituals: such as pilgrimage, prayer and fasting, in addition to some good morals that Islam praised and approved. The results of the study also recommend the necessity to build on what in the western world today of - good morals - can be to be built upon during their call to worship Allah

*** مقدمة**

فقد أمرنا الله بالقسط والعدل، ونهانا أن نظلم الناس شيئًا، فهو سبحانه وتعالى العدل الذي لا يظلم مثقالَ ذرة، وقد أمرنا ألَّا نبخس الناس شيًا، فما وجدنا في الناس من خيرٍ ومعروفٍ شاركناهم فيه ونَّميناه وزدنا فيه وصبغناه بشريعة الله المطهرة، وما كان في الناس من شرٍّ ومنكرٍ اجتنبناه ونهينا عنه.

ومن الظلم البيِّن الحكم على حقبةٍ تاريخيةٍ بأنها شرٌّ محض لا خيرَ فيها بوجهٍ من الوجوه، أو أن يُحكم على إنسان بأن الشرَّ والمنكر قد استحكم فيه، دون أن يُذكر له أي حسنة فيه محققة، فقد جاء الشرع الحنيف بالعدل والقسط وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه، وقد جاء هذا البحث ليظهر الأمور التي كان العربُ يتحلون فيها قبل الإسلام ثم أقرها آيات القرآن

وأحاديث السنة النبوية بعدُ، وقد جعلتُ هذا البحث تحت عنوان **[مَا أَقَرَّهُ الإِسلَامُ مِنْ أُمورِ الجَاهِلِيَّة]**.

*** أهداف البحث**

١- بيان منهج الإسلام في إقرار ما في الناس من خيرٍ.

٢- إظهار ما كان عليه العرب من أخلاق حسنة لم تندثر رغم ما يعيشون من جاهلية.

٣- التحذير من غمط الناس حقهم، وبخس ما هم عليه من خير.

٤- بيان أنَّ الخيرَ في الناسِ باقٍ لا يَندرس، وأنَّ المعروفَ موجودٌ في فِطَرِ الناس.

*** مشكلة البحث**

لقد ساد بين كثير من الكُتَّاب ومن بعدهم كثير من الناس أن العرب قبل الإسلام كانوا شرًّا محضًا لا خيرَ فيهم بوجهٍ من الوجوه، وأن الجاهلية قد ضربتهم في مقتل حتى ماتت فطرتهم واندرست أخلاقهم وما عاد هناك خيرٌ يُذكر ولا معروف يُنشر، وقد جاءت هذه الدراسة لتؤكد أن الناس قبل البعثة النبوية كان فيهم الخير والشر وإن كان الشرُّ طاغٍ والمنكر شائعًا، ويتوقع أن تجيب هذه الدراسة على الأسئلة التالية:-

١- هل وُجد في العرب بعض الخير أم أنهم كانوا شرًّا محضًا؟

٢- هل أقرَّ الإسلام شيئًا مما كان عليه العرب قبل البعثة النبوية؟

٣- ما هي الطريقة المُثلى في النظر إلى المجتمعات والأشخاص كذلك؟

*** منهج البحث**

سلكتُ في بحثي هذا المنهج الاستقرائي: فقد قمت باستقراء كثيرٍ من كتب السنة النبوية، واخترت النصوص التي ذُكر فيها شيءٌ من أمور الجاهلية -الحسنة- وذكرت كيف كان منهج الإسلام في قَبولها وعدم ردها، وكيف أقرها الإسلام سواء بآية أو بحديث، سلكت أيضًا المنهج التحليلي: وذلك باستخراج المعاني الواردة في الأحاديث النبوية وتوجيهها وتوظيفها بما يخدم الفكر الإسلامي القائم على إعطاء كل ذي حق حقه مستعينًا بأقوال شراح الحديث القدامى والمحدثين، وسلكت كذلك المنهج النقدي: فقمت بتخريج الأحاديث ونقل حكم علماء الأحاديث عليها والتعليق على ذلك.

أولاً- مفهوم الجاهلية

١- مفهوم الجاهلية لغة واصطلاحًا

أولًا: الجاهلية لغةً

الجاهلية في اللغة: اسمٌ مشتقٌ من مادة جَهَلَ، قال ابن فارس: "جهل: الجيم، والهاء، واللام، أصلان. أحدهما: خلاف العلم، والآخر: الخفة وعدم الطمأنينة."[1].

والأصلان في الجاهلية متحققان. إذ يقول ابن منظور: "الجهل: نقيض العلم، وتجاهل: أظهر الجهل، والجاهلية: زمن الفترة ولا إسلام، وقالوا: الجاهلية الجهلاء؛ فبالغوا وهي: الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه، وبرسوله، وبشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكِبْر، والتجبر، وغير ذلك"[2]، وجاء في المعجم

(1) معجم مقايس اللغة لابن فارس: ص228.

(2) لسان العرب لابن منظور: (129/11).

الوسيط: الجاهليةُ: ما كانَ عليه العربُ قبلَ الإسلامِ منَ الجهالة والضلالة"[3].

نَخلُصُ مما سبق أنّ تعريف الجاهلية في اللغة مُنْصَبٌّ على اضمحلال العلم، وخفة العقل، وعدم الطمأنينة. وكل هذا له علاقة بالجاهلية كما سنرى.

ثانيًا: الجاهلية اصطلاحًا

ذكر العلماءُ المتقدمون أقوالًا في تعريف الجاهلية منها:-

قال النووي في عدة مواضع: "والجاهلية ما قبل بعثة رسول الله، سُمُّوْا بذلك لكثرة جهالاتهم، ولِما كانوا عليه من فاحش الجهالة"[4].

وقال ابن تيمية: "فالناس قبل مبعث الرسول كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإنّ ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال، إنما أحدثه لهم جُهّال، وتلك كانت جاهلية عامة، فأما بعد ما بَعَثَ اللهُ الرسول -صلى الله عليه وسلم- فالجاهلية المطلقة قد تكون في مِصرٍ دون مِصر كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، وأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفةٌ ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين ... وإن كان لفظ الجاهلية لا يقال غالبًا إلا على حال العرب التي كانوا عليها"[5].

وقال ابن حجر العسقلاني: "والجاهليةُ أي: ما كان بين المولد النبوي والمبعث، ويطلق غالباً على ما قبل البعثة، وأما ما جزم به النووي في عدة مواضع من "شرح مسلم" أنَّ هذا هو المراد حيث أتى، ففيه نظر"[6].

وقال أبو العُلا المباركفوري: "والمراد بالجاهلية: الحال التي كان عليها الناس قبل بعثة نبيهم"[7].

وقال شمس الحق آبادي في تعريف الجاهلية: "أي في زمن الجاهلية قبل الإسلام"[8]، وقال أيضًا: "الحال التي كانت قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله، وشرائع الدين، وغير ذلك"[9].

وأما كلام المعاصرين فهو على النحو التالي:-

يقول سيد قطب –رحمه الله-: "والجاهلية ليست فترةً تاريخيةً، إنما هي حـــالةٌ تُوجدُ كلمـــا وُجِدت مقوماتُها في وضعٍ أو نظام، وهي في صميمها: الرجوع بالحكم

([3]) المعجم الوســيط: (143/1، 144) د/ ابراهيم أنيس، د/عبد الحليم منتصر، عطية الصالحي، محمد خلف الله أحمد.

([4]) النووي، شرح النووي على صحيح مسلم: [(166/1)، (388/1)، (439/1)، (482/1)، (89/2)].

([5]) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم: ص (74-76).

([6]) ابن حجر العســقلاني، فتح الباري شرح صــحيح البخاري: (184/7).

([7]) أبو العلا المباركفوري، تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي: (9/9) ح3381.

([8]) شمس الحق آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود: (141/2) ح1131.

([9]) المصدر السابق: (110/5) ح3312.

والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة "[10].

وقال محمد قطب: "ليست الجاهلية صورةً معينةً محدودةً كما يتصورها الطيبون، الذين يرون أنها فترةٌ تاريخيةٌ مضت إلى غير رجوع، إنما هي جوهرٌ معين، يمكن أن يتخذ صوراً شتى... وليست هي المقابل لما يُسمى العلم، والمعرفة، والحضارة، والمدنية ...، إنما الجاهليةُ كما عناها القرآن وحدَّدها: هي حالةٌ نفسيةٌ ترفضُ الاهتداءَ بهدى الله، ووضعٌ تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله"[11]

وقال د. صلاح الخالدي: "والجاهلية هي كل هذه الأشياء، والأفكار، والتصورات، المخالفة للإسلام، وإنَّ كل ابتعاد عن منهاج الله وشرعه في أيّ زمان ومكان فهو جاهلية، ولهذا نعيش نحن الآن جاهلية القرن العشرين في كافة مجالات الحياة"[12].

والخلاصة: قد دلَّت عباراتُ العلماء على أنَّ لفظةَ الجاهلية تُطلق ويُراد بها الفترةُ التي كانت قبل الإسلام، بكل ما تحمله هذه اللفظةُ من معانٍ سيئة، ولكنها بمعانيها لا تختص بزمن دون زمن، أو بفترة دون أخرى، فحيثما وُجدت هذه المعاني السيئة وُصِفَ أهلُها بالجاهلية.

ونستطيع أن نُعرِّفَ الجاهليةِ باختصار: **"إنَّ كلَّ انحرافٍ عنْ دينِ الرسلِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ يعتبرُ جاهليةٌ، في أي زمان وفي أي مكان".**

٢- الآيات المذكور فيها لفظة "الجاهلية"

إنَّ الناظرَ في كتاب الله سبحانه وتعالى يجد كمًّا كبيرًا من الآيات تتحدث عن عظيم نعمة الله للعرب ولغيرهم، حيث أخذ الله بأيديهم فاستنقذهم مما كانوا فيه من الضلال والحيرة والشرك، وهداهم للإيمان والمعرفة والخير، فقد كنَّا ضلالًا فهدانا الله، وكنَّا على شفا حفرةٍ فأنقذنا الله عزَّ وجلَّ **{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [آل عمران: 103].

ولقد تعرض القرآن الكريم للكثير من مظاهر المجتمع الجاهلي[13] بطريقة ممتدة تاريخيًا، متجاوزًا بذلك حدود الجزيرة العربية آنذاك، وقافزًا على تاريخ البشرية كلها، مرسٍ قواعد للجاهلية كلما وجدت هذه القواعد وجدت الجاهلية المذمومة المبغوضة، والتي تحتاج ساعتها لأيدٍ نبوية كريمة، تأخذ بأيدي الناس من جديد للهداية والنور **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ**

([10]) سيد قطب، في ظلال القرآن: (891/2).
([11]) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين: ص9 بتصرف.
([12]) صلاح الخالدي، التفسير الموضوعي: ص (171، 172، 173) بتصرف.
([13]) للتفصيل أكثر في مظاهر المجتمع الجاهلي يُنصح بقراءة: "مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول اللهُ -صلى الله عليه وسلم- أهلَ الجاهلية" للشيخ محمد بن عبد الوهاب، توسع وتعليق: محمود شكري الألوسي.

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: 15 – 16].

والآيات التي ذُكر فيها لفظة الجاهلية هي:-

أ- {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران: 154]

ب- {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: 50]

ج- {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: 33]

د- {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح: 26]

والملاحظ من الآيات السابقة ما يلي:-

١- جاءت هذه الآيات كلُّها في سور مدنية، وكأنها تذكر المؤمنين بما كانوا عليه من ضلالٍ مبين ليشكروا الله عزَّ وجلَّ على نعمة الإسلام.

٢- جاءت الآياتُ كلها في معرض الذم للجاهلية، إذ إن الخير الذي كان في أنفس أهل الجاهلية ما هو إلا قليل ونادر إذا – ما قُورن- بما هم عليه بعد الهداية.

٣- جاءت الجاهلية في الآيات في مقابلة كلِّ ما ينقاضُها من خير، فالآية الأولى ذُكر فيه ظنُّ الجاهلية في مقابلة ظنِّ المؤمنين الحق بالله، الذي أورثهم الأمنَة، والآية الثانية ذُكر فيه حكم الجاهلية في مقابلة حكم الله سبحانه، والآية الثالثة ذُكر فيها تبرج الجاهلية في مقابلة القرار في البيوت دون تبرج أو سفور، والآية الرابعة ذُكر فيها حَمِيَّةَ الجاهلية في مقابلة حَمِيَّةِ الدين والحق، التي أورثت الرسول والمؤمنين معه السكينة والطمأنينة.

٤- هذه الصفات التي ذُمَّت من أجلها الجاهلية ليست خاصة بجيل دون جيل، فمتى تحققت هذه الصفات في قومٍ عُدَّ أصحابها من أهل الجاهلية دون التقيد بزمان أو مكان، فمن ظنَّ بالله غير الحق فهو امرئٌ فيه جاهلية، ومن طلب حكمًا غيرَ حكم الله فهو امرئٌ فيه جاهلية، ومن لم تقِر في بيتها وأصرت على التبرج خارجَه فهي امرأة فيها جاهلية وإن أبت، ومن غلا قلبُه بحميةٍ وعصبيةٍ لغير الحقِّ فهو امرئٌ فيه جاهلية.

فالجاهليةُ كلها مذمومةٌ؛ ظنُّها وحكمُها وتبرجُها وحميتُها.

فما أن تُذكر لفظةُ "الجاهلية" حتى يتحرك في الذهن كلُّ شيء سيء، فمن مدلولات الكلمة ارتباطها بالجهل وقلة الإدراك وعدم المعرفة، وهذا كلُّه يُؤدي إلى انتهاكِ كلِّ معروفٍ، وتجاوُزِ كُلِّ مألوفٍ، وأغلبُ نصوص الوحي من آيات وأحاديث يشهد بذلك، فما ذُكرت الجاهلية في القرآن والسنة إلا مذمومةً مبغوضةً، وهذا الذي اشتُهر بين المسلمين.

٣- وصفٌ عام للجاهلية

لقد أظهرت لنا السنةُ النبويةُ ظلامَ حالةِ العرب قبلَ الإسلام بجلاء ووضوح، فقد مقت اللهُ أهلَ الأرض عربهم وعجمهم، قبل بعثة سيدنا محمد؛ فهم يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيئون الجوار، ويأكل القوي منهم الضعيف.

"هي عين جاهلية القرن الحالي، التي من أكثر مظاهرها ابتزازُ المستضعفين، وأكلُ حقوقهم، وإساءةُ جوارهم، والبطشُ بهم، وحصرُهم علمياً واقتصادياً؛ لئلا يشبّوا – يخرجوا – عن طوق الظالمين، وليبقوا عبيداً للظالمين أهل الجاهلية"[14].

لقد كان العربُ قبلَ الإسلام في شقاءٍ أكيد، وبلاءٍ شديد، يلبسونَ الوبرَ والشعرَ، ويعبدون الشجرَ والحجرَ، فهم قومٌ أهل ضلالة، وليسوا على شيءٍ، ولا مكانَ لتصوراتهم وأفكارِهم الجاهلية إلا تحتَ أقدام سيدِ الخلق وحبيبِ الحق سيدنا محمد.

وحتى لا نبخس الناس أشياءهم، فإنّ أهل الجاهلية بقيت فيهم بقايا حسنة منذ عهد إبراهيم ولكنها لم تكن لتأخذ المظهر العام حتى تصبغ المجتمع، وإنما ذابت في دياجير الجاهلية، والحديث عن الجاهلية ليس بدعاً وإنما لنا فيه سلف وأيُّ سلف، فَعنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَثِيرًا. كَانَ لا يَقُومُ مِنْ مُصَلاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ **فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ**؛ فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ صلى الله عليه وسلم] [15].

وفي هذا جواز الحديث بأخبار الجاهلية وغيرها من الأمم"[16].

ولا أصدق في تصوير حالة المجتمع الجاهلي آنذاك من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِه: **[أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ[17] عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ[18] كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ[19] عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]**[20].

"والمرادُ بهذا النظر والمقت الواردين في الحديث من قبل الله لأهل الأرض، إنما هو لما قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمراد ببقايا أهل الكتاب: الباقون على التمسك بدينهم الحقِّ من غير تبديل، وهم يومئذٍ قليل"[21].

---

(14) نزار ريّان، مذكرة: ص22.

(15) مسلم، صحيح الإمام مسلم: ص1087/ح2322 كتائب الفضائل، باب تبسمه وحسن عشرته صلى الله عليه وسلم.

(16) النووي، شرح صحيح للإمام النووي: (78/8).

(17) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (29/5) وفيه: نَحَلتُهُ: النَّحل – العطية والهبة ابتداءً من غير عوض ولا استحقاق.

(18) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (451/1) وفيه: حُنَفاء: أي طاهرين من المعاصي، والحنفاء: جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام، الثابت عليه، والحنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم .

(19) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (317/1) وفيه: فاجتالتهم: مِنَ الجَوْل وهو الحركة ذهاباً وإياباً، أي استخفتهم الشياطين فجالوا معهم في الضلال.

(20) مسلم، صحيح الإمام مسلم: ص1174، ح2865 كتاب: الجنة، باب: الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار.

(21) النووي، شرح صحيح مسلم (217/9) بتصرف.

وحين يصف الذين عاشوا ذلك الزمن الجاهليةَ، فإنما ينطقون بالصدق والحق، فما عُرف عنهم الكذب في الجاهلية ولا في الإسلام، ومن أبرز الذين وصفوا لنا ما كان عليه القوم قبل نزول الوحي: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث يقول حين وقف أمام النجاشي: [**أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَـاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَـامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ، لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلام ...)**[22] .

"... لقد عرضَ جعفرُ كلَّ مساوئ الجاهلية، وعوراتها، وقذرها، بحيث أصبح هذا الدين الذي يدين به وفد قريش تتقزز منه كل نفس بشرية، وفي هذا الموقف الذي وقفه جعفر تتزلق الأقدام، وتزل القلوب، ويتوهم كثيرٌ من الدعاة أنهم بقولهم حقيقةَ مبادئهم، يخسـرون حياتهم"[23].

ما أصدق هذا الوصف الذي عرض له جعفر رضي الله عنه، حيث أبان الحالة التي كان يعيشها القوم بلا وحي ولا رسالة، حيث كانوا في **[شَقَاءٍ شَدِيـد، وَبَلاءٍ شَدِيـد، نَمَصُّ الْجِلْدَ وَالنَّوَى مِنْ الْجُوعِ، وَنَلْبَسُ الْوَبَرَ وَالشَّعَرَ، وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالْحَجَر]**[24] فالناسُ على ضلالةٍ وليسوا على شيءٍ، ومظاهر حياتهم كلها: الاعتقاد، والعبادات، والتشريع والمعاملات، كل هذا قد ضربته الجاهلية في مقتل، فصرفته عن صراط الأنبياء عليهم السلام، ومثل هذه التصورات المقيتة، والمظاهر البغيضة لا يصلح إلا أن تكون تحت أقدام المصطفى صلى الله عليه وسلم، فعن جابر بن عبد الله قال: خطبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم النـاسَ وقال: **[أَلا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ]**[25].

ثانياً– {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} [الأعراف: 85]

تمثل الجاهليةُ حقبةً تاريخيةً، توارث أهلُها بقيةً من الحنيفية السمحة، وكان يعيش بينهم بقايا من أهل الكتاب، أبقى لهم هذا وغيرُه شيئًا من الخير، بعضُه كان صفةً عامةً في كلٍّ من عاش تلك الفترة الزمنية قبل الإسلام، والبعض الآخر

---

(22) أحمد، مسند الإمام أحمد (201/1) وإسناد الحديث صحيح، وقد صحح الحديثَ الإمام الهيثمي في (مجمع الزوائد 24/6، 27، وقال: رجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع. وصححه الشيخ الألباني في تعليقه على (فقه السيرة) للغزالي ص123. وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على (المسند) 354/2.

(23) محمد منير الغضـبان، المنهج الحركي للسـيرة النبوية: ص95، وفقه السيرة النبوية: ص 157، بتصرف.

(24) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص255/ح3159 كتاب: الجزية والموادعة، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب.

(25) مسـلم، صـحيح مسـلم: ص483/ح1218 كتاب: الحج، باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم.

كان صفةً خاصةً في بعضهم، والناس تُسلم على ما تُسلف من خير، والخيرُ باقٍ في أهلِ الأرض ما بقيَ الليلُ والنهار.

ولأننا مأمورون أن ننظر بعينين لا بعين واحدة، فنرى الخيرَ والشرَّ معًا، ونرى الحسنةَ والسيئة معًا، حتى لا نبخس الناس أشياءهم، كان هذا البحث كله وهذا المبحث خاصةً، والذي يظهر فيه شيءٌ من محاسن الناس في الجاهلية، وبعضٌ من صفات أهل الجاهلية، إحقاقًا للحق، وإظهارًا للصورة التي كان يعيشها العرب في تلك الحقبة الزمنية، وفي هذا إيفاءٌ للكيل والميزان بالقسط.

١- القرآنُ الكريمُ وعدمُ بخسِ الناسِ أشياءهم

قد أمرنا اللهُ في كتابه الكريم ألا نبخس الناس أشيائهم، وأن نعطي الناس حقوقهم، وألا نغمط الناس ونحتقرهم، وهذا من العدلِ الذي قامت به السمواتُ والأرضُ، فالإنسانُ حسناتٌ وسيئاتٌ، وخيرٌ وشرٌّ، بل وكفرٌ وإيمانٌ، ومن الظلم بمكانٍ أن يُنظر لما في الإنسان من شرٍّ ويُعرض عما فيه من خيرٍ، تلك إذًا قسمةٌ ضيزى.

وقد رفع اللهُ السماءَ ووضعَ الميزان، وأمر الناس جميعًا ألا يُخسروا الميزان، سواء كان الوزنُ لهم أم لغيرهم فقال **{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)}** [الرحمن: 7 - 9].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "وَقَرَنَ -اللهُ- ذَلِكَ مَعَ رَفْعِ السَّمَاءِ تَنْوِيهًا بِشَأْنِ الْعَدْلِ بِأَنْ نُسِبَ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَهُوَ عَالَمُ الْحَقِّ وَالْفَضَائِلِ، وَأَنَّهُ نُزُلٌ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ أَيْ هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَلِذَلِك تكَرر ذَلِك الْعَدْلِ مَعَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاءِ..."[26].

والآيات الآمرةُ بالعدل والقسط كثيرةٌ مشهورة، وهي بجملتها قد جعلت العدلَ "مع الجميع ومن الجميع" وهو في أبسط صوره: ألا تُخفى حسناتُ الناس من أجل سيئاتهم، وألا يُضرب صفحًا عن خيرهم من أجل شرِّهم، وألا يُطمس معروفُهم ويُشهر منكرُهم، فالوزن يوم القيامة بالحق والعدل، ومن الحق والعدل قولُ الله -سبحانه- **{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)}** [الأنبياء: 47].

وهذا الميزان الرباني القاضي بذكر الناس -مسلمين كانوا أو غير مسلمين- بما فيهم من خير وشر، والقاضي كذلك بعدم الحياء من ذكر غير المسلمين بما فيهم من خير ومعروف، ومن الآيات التي يمكن أن تؤصل لهذا قول الله -سبحانه وتعالى- **{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)}** [آل عمران: 113 - 115]

والقرآنُ الكريمُ حوَى الكثيرَ من الآيات التي ذكرَ اللهُ فيها الناسَ بما فيهم من خيرٍ وإن كانوا على غير ملة

([26]) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور 238/27.

الإسلام، وما ذاك إلا انصافًا لهم وتعليمًا لنا، ومن ذلك أن بني إسرائيل معروفون بسوء فعالهم وقبيح صفاتهم، ولكنَّ هذا ما كان ليمنع نزول آيات تشير لما في بعضهم من خيرٍ **{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }** [الأعراف: 159] وقال بعدها مقررًا منهجَ الإنصاف والعدل، وأن الناس ليسوا سواءً **{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الأعراف: 168].

يقول الشيخ الشعراوي –رحمه الله– معلقًا على قول الله –سبحانه وتعالى– **{وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم}** "وإذا كانت الخسارةُ في الكيل والميزان طفيفةً ومحتملةً، فمن بابِ أولى ألا نبخسَ الناسَ أشياءَهم فلا نظلمهم بأخذِ أموالِهم والاستيلاءِ على حقوقِهم، فلا نسرقْ لأنَّ السارقَ يأخذ ما تصلُ إليه يدُه، ولا نغتصبُ، ولا نختلسُ، ولا نرتشي، لأنه إذا كانَ وفاءُ الكيلِ هو أولُ مطلوبِ اللهِ منكم مع أنَّ الخسارةَ فيه طفيفةٌ، إذنْ فبخسُ الناسِ أشياءَهم يكونُ من بابٍ أولى"[27].

٢– السنةُ النبويةُ وعدمُ بخسِ الناسِ أشياءهم

السُّنة النبوية هي الوعاء الأوسع للشرع الحنيف، فقد حوت نصوصها على كثيرٍ من الأحاديث النبوية تظهر بجلاء ودون مواربة ذكر الناس –مسلمين وغير مسلمين– بالخير الذي فيهم، دون بخسٍ أو شططٍ، فما كان للشر الذي في الناس أن يمنع أن نذكرهم بما فيهم من خير، وما كان الكفر الذي في الناس أن يمنعنا عن ذكرهم بما عندهم من أمورٍ حسنة؛ يُمدحون عليها.

عنِ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: **[تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ]** فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا: "إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ : وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ.[28]

فهذا صحابيٌّ كريمٌ رضيَ اللهُ عنه لم يجدْ حرجًا في ذكر الناس بما فيهم مع اعتقاده أنهم في ضلال مبين، وأنهم مشركون، وهذا يدفعنا إلى القول بأن النظرة السوداوية التي ينظر بها كثيرٌ من أبناء المسلمين لدول الغرب، فيها ظلمٌ كبيرٌ، وبعدٌ عن الصواب والإنصاف والعدل، فمن المُحال أن يكونَ القومُ كما هو في أذهان المسلمين: قوم كذَّابون، زناة، شرَّاب خمر، لُهاة، أصحاب ربًا، سرَّاق، ومع كل هذا وغيره وصلوا إلى القمرِ، وصنعوا بوارج تمخر البحرَ من ألواح الشجر.

إنه من الظلمِ بمكانٍ أن ننظرَ إلى الناسِ في دولِ الغربِ بعينٍ واحدة، معرضينَ عن كثيرٍ من الجوانبِ الإنسانية المشرقةِ فيهم، فهم أحلمُ الناسِ عندَ الفتن، وأسرعُ الناسِ إفاقةً بعدَ المصائب، وأوشكُ الناسِ كرةً بعدَ فرةٍ، وأكثرُ الناسِ منعًا لظلمِ الملوك.

---

(27) الشعراوي: تفسير الشيخ الشعراوي -رحمه الله-: (4236/7).

(28) مسلم: صحيح الإمام مسلم: ص1180/ح 2898، كتاب: الفتن، باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس.

وهذه صفات الروم -أي الغرب- من لدن عمرو بن العاص إلى اليوم كما هي ما تبدلت، وهذا وصفٌ من سياسيٍّ محنكٍ، واعترافٌ منه بخصالِ القومِ الحميدة، وخلاصةُ الأمر أنَّ التعميم خاطئٌ، فليس كلُّ الكفارِ أهلَ شرٍّ وسوءٍ، كما ليس كلُّ المسلمين أهلَ خيرٍ وأخلاق، ويجب الاعترافُ بخصالِ الناسِ الحميدة، وعدمُ انكارِها لكونِهم كفاراً، كما فعلَ الصحابةُ وغيرُهم.

ومما يؤصل لهذا الأمر ما ذكرهُ ابْنُ إِسْحَاقَ في السيرة قال: فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا يُصِيبُ أصحابَه مِنْ الْبَلَاءِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِنْ الْعَافِيَةِ، بِمَكَانِه مِنْ اللَّهِ وَمِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وأنه لا يقدر أَنْ يمنعَهم مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ الْبَلَاءِ، قَالَ لَهُمْ: **[لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أرضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أحدٌ، وَهِيَ أرضُ صدقٍ، حَتَّى يجعلَ اللهُ لَكُمْ فرجًا مما أنتم]** [29].

ووفق هذا النص وغيره، لم تجدْ أمُّ المؤمنين أمُّ سلمة -رضي الله عنها- غضاضةً في أن تذكر النجاشيَّ -رحمه الله- بخيرٍ فيه، فَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: **[لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ...]** [30].

*** يقول د. راغب السرجاني:**

"لم يعلقِ الرسولُ -صلى الله عليه وسلم- على شيء في حياة الرجل ولا دينه، ولكن علَّق على عدله، ما حدث للمسلمين في مكة كان نتيجة ظلم بين من أهل مكة، لكن ملك الحبشة النجاشي رحمه الله كان عادلاً، وهو بذلك يحفظ حقوق الآخرين بغض النظر عن ديانتهم أو حبهم أو كراهيتهم، فالعدل أساس من أسس الحكم، وبغيره لا تستقيم الدنيا والآخرة"[31].

وقد علَّمنا رسولُ اللهُ -صلى الله عليه وسلم- أن نقدر ما في الناس من خيرٍ ونسعى لتنميته واستثماره في كل خير ينفع الأمة، وأن ذكر الناس بما فيهم من خيرٍ لا يضرنا في شيء، وأن بخس الناس أشياءهم وانتقاصهم حقهم ليس من الحق في شيء، ففي حادثة صلح الحديبية، يقول ابن هشام: "ثُمَّ بَعَثُوا إلَيْهِ -يعني إلى النبي صلى الله عليه وسلم- الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ أَوْ ابْنَ زَبَّانَ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ، وَهُوَ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**إنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا**

([29]) ابن هشام، سيرة ابن هشام [280/1] تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، وقد رواه البيهقي في دلائل النبوة (301/2) بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها مطولًا، ورجال الحديث رجال الصحيح، غير [ابن إسحاق] وقد صرح بالسماع، وقد قال الشيخ الألباني: "هو إسناد جيد، وقد سكت عنه الحافظ في الفتح" سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها 578/7.

([30]) ابن هشام: سيرة ابن هشام [334/1] وقد روى الحديث الإمامُ أحمد في مسنده [263/3] وقال الشيخ شعيب محقق المسند: إسناده حسن.

([31]) راغب السرجاني، السيرة النبوية للدكتور راغب السرجاني 6/8.

الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ"، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ الْوَادِي فِي قَلَائِدِهِ، وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحِلِّهِ، رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِعْظَامًا لَمَا رَأَى، فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ. قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: اجْلِسْ، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ[32].

فانظر كيف أنَّ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– ذكر الرجل "الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ" بأنه من قومٍ يتألهون، وأنه أرسل في وجهه الهدي حتى يراه فيعظم أمرُه في عينه فيكف عن صد المسلمين عن البيت الحرام، وهذا ما وقع، **قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ**: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ الْحُلَيْسَ غَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاَللَّهِ مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ، أَيُصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعَظِّمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ، لَتُخَلُّنَّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَأَنْفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ. قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ، كُفَّ عَنَّا يَا حُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ[33].

ثالثاً– أُمورُ الجَاهلية الحَسَنَة[34]

لقد أصابَ الانحرافُ كلَّ مناحي حياة الناسِ قبلَ الإسلام، وما ترك لهم مجالًا مصانًا من ضلالات الجاهلية، فعقائدُهم مبناها على الشرك، وعباداتُهم مصبوغة بالبدع، ومعاملاتُهم تسيرُ وفقَ أمزجتهم، وتشريعاتُهم تتبعُ أهوائَهم، ويبقى لهم بقيةٌ من خيرٍ في بعضِ أخلاقِهم وعاداتِهم، ولأنَّا لا نبخس الناس أشياءهم ولا يضيرنا ذكر الناس بما فيهم من خير، ولأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها، لذلك سنذكر ما عند القوم من أمور حسنةٍ، دون أن نجد في أنفسنا حرجًا.

١– جانبُ العقيدة

قد ابتعد القومُ عن ضياء التوحيد ومنهج الحنيفية، وعمّت بينهم الجاهلية، فأخذوا يذبحون لغير الله، وينكرون كثيراً من أسماء الله تعالى، وغالى القوم حتى نسبوا لله ما لا يليق به تعالى، وكفروا بالبعث والنشور، واستغربوا أن يكون الرسول بينهم بشراً، وخاصموا في القضاء والقدر، وقالوا: الملائكة بنات الله – زوراً– فأُحلوا بهذا دار البوار، لأنهم بدّلوا نعمة الله كفراً. وأصبحت الأرضُ مَذْأَبةً[35] يسودها الفتكُ والاغتيال، فَقَدَ فيها الضعافُ نعمةَ السكينة والأمان. وأيُّ خيرٍ يُرجى من وثنيةٍ كفرتْ بالعقل ونسيتِ الله، ولانتْ في أيدي الجاهليين؟

ومع هذا فإن من حسنات القوم التي بقيت لهم: ما ذكره القرآنُ الكريمُ من إيمانهم بالله ربًّا وخالقًا، إيمانًا ناقصًا مجتزئًا، وما ذاك إلا لأنَّ هذا النوع من الإيمان لا ينكره إلا معتوهٌ فاقدُ العقل، معارضٌ لفطر البشر، فالقوم كما نطق القرآن يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى خالقٌ لهم {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) } [الزخرف: 87] ويؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى خلق

(32) ابن هشام، سيرة ابن هشام 312/2 تحقيق: مصطفى السقا
(33) المرجع السابق
(34) لقد اتصف العربُ بكثيرٍ من الأخلاق الفاضلة كإيواء الضيف، والكرم، وإنقاذ الملهوف، وحسن الجوار، والحلم، والأناة، وعزة النفس، والوفاء بالعهد وغير ذلك، إلا أنني لا أثبتُ إلا ما وجدتُ فيه نصًّا حسب اطلاعي. والله أعلم.
(35) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص: 292 وفيه: "مذابة" كثيرة الذئاب؛ للدلالة على عدم الاستقرار.

السموات والأرض وسخر الشمس والقمر {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) [العنكبوت: 61] ويؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى بأن الله يحي الأرض بعد موتها [وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) }[العنكبوت:63]

ومع أنهم ينكرون أغلبَ أسماء الله عز وجل الحسنى، ومنها اسم الله [الرَّحْمَن] {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)} [الفرقان: 60] غير أنهم يؤمنون بالبعض الآخر{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)} [الزخرف: 9] وربما كان إيمانُهم إيمانًا قوليًا، لا أثرَ له على أفعالِهم، وهذا الذي يُفهم من خلالِ النظرِ في تصرفاتهم وحياتِهم، " فهم كانوا يعترفون بأن الذي خلقهم هو «الله» ولكنهم لم يكونوا يعرفون اللهَ بصفاته التي جاء بها الإسلام، هذه الصفاتُ الإيجابيةُ التي تجعلُ لذاتِ الله في نفوسهم أثرًا فعَّالًا في حياتهم وحياة هذا الكون، كانوا يعرفون الله خالقًا لهذا الكون، وخالقًا لهم كذلك، ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء، لأنهم لم يعرفوه بصفاته التي تنفي فكرة الشرك، وتجعلها تبدو متهافتة سخيفة"[36].

وفي القرآنِ ما يشيرُ إلى مزيدِ تفصيلٍ بإيمانهم بالله عز وجل، لكنه إيمانٌ مبتورٌ عن الإقرار بأحقية الله سبحانه وتعالى بالعبادة وحده لا شريك له ***{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) }*** *[يونس: 31 - 33]* .

وإيمانُهم بربوبيةِ الله سبحانَه وتعالى مع أنَه مجتزأٌ مبتورٌ عن بقيةِ أصول الإيمان غيرَ أنَّ الإسلام أقرهم عليها، و لم ينكرها عليهم، و لم يرفضها منهم، والقرآن الكريم عبر الآيات السابقات سجَّل نطقهم بإيمانهم مُقرًّا لهم غيرَ منكر، فلا يعني كون القوم على سوء أن يُرفضَ منهم الجانبُ الحسنُ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: [وهذا الاعتقاد بأن الله خالقهم وبأنه مالك الملك، هو أصل الإقرار بتوحيد الربوبية. ومع هذا الإقرار بأصل توحيد الربوبية، فقد وقعوا فيما يقدح في كماله وتمامه، حيث اعتقدوا أن ثَمّت وسائط، وشفعاء يُتقرّب بها إلى الله. وقد نص الله سبحانه على هذا الاعتقاد في قوله تعالى: **"وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّهِ** "وقوله **"وَالّذِينَ اتّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى"**] [37].

٢– جانب العبادات

فكما أنَّ مظاهرَ العقيدة عندهم أصابها الانحرافُ والخللُ، فالنتيجة الطبيعية لهذا الانحراف أن يتْبَعَه انحرافٌ آخر في العبادات والشعائر، فالصلاة عندهم أصبحت تصفيقًا وتصفيرًا، و"مناسك الحج دخلتها الوثنية، حيث وُضعت الأصنامُ حولَ الكعبة، وجرى الطوافُ حولَها مع التعري من الثيابِ أحيانًا، وأصبحت قريشٌ لا تخرجُ إلى عرفات، وهكذا

(36) سيد قطب: *في ظلال القرآن [3177/5]*.

(37) ابن تيمية، فتاوى شيخ الإسلام [126/1-127].

ابتدعوا وشرعوا ما لم يأذنْ به الله، فعباداتُهم للآلهة، وتقربُهم للأصنام، والنذورُ ليس من أجلِ الآخرة، بل لتحقيقِ مطالبَ دنيوية، مثل زيادةِ الأموال، ودفعِ الشرِّ عنهم في هذه الدنيا، إذ لا علمَ لهم بالآخرة، وبذا قد نقصوا من العبادة، وزادوا فيها؛ تبعًا لأهوائهم ..."[38].

ومع ذلك فقد بقي للقوم جانبٌ حَسنٌ لا يَخفى، لكنه مشوبٌ بالشرك والخرافات، فهم -مثلًا- يُعتقون الرقاب، ويعتكفون في المسجد الحرام، وينذرون ويُسَيِّبون، وقد مَاتوا على مَا هُم علَيه من خيرٍ وشرٍّ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** [النور: 41]، ومن هذه الأمور التي بقي فيها شيءٌ من خيرٍ وأقرها الإسلام في جانب العبادات ما يلي:-

أولًا: صيامُهم، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **"كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ[39] تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ"[40].**

وأمَّا عن كيفيةِ صومِهم في هذا اليوم، فقد قرأتُ[41] أن صفة صومهم هي: الامتناع عن الطعام والشراب، وعدم إتيان النساء، وهو صوم عن الكلام وفاحش القول، وأمَّا عن سبب صومهم لهذا اليوم، فيذكر ابن حجر: "أنهم ربما تلقوه من الشرع السالف، ولهذا كانوا يعظمونه بكسوة الكعبة فيه، وغير ذلك. ثم ذكر عن عكرمة أنه سئل عن ذلك فقال: أَذْنَبَتْ قريشٌ ذنباً في الجاهلية فَعَظُمَ في صدورهم؛ فقيل لهم: صوموا عاشوراء يُكَفِّر ذلك"[42].

وليس من شكٍّ أنَّ الإسلام أقرَّ الناس قبل البعثة على مبدأ صومهم، كما في صيامهم ليوم عاشوراء، غير أنه صبغ الصوم بلونه الشرعي الخاص، فجعله سببًا لتحصيل التقوى **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) }** [البقرة: 183]، وفرضه على المسلمين ليكون لهم مدرسةً لتهذيب أخلاقهم وضبط سلوكهم عن الحرام، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رِوَايَةً – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- قَالَ: **"إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ"[43].**

ثانيًا: حجُّهم، فإنَّ هذا مما بقي لأهل الجاهلية متوارثًا على مدار التاريخ، وقد أقرهم الإسلام على أصل فعالهم، من

([38]) وائل محيي الدين الزرد: مظاهر الجاهلية كما تصورها نصوص السنة النبوية، ص: 92 بتصرف.

([39]) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر 238/3 "عَاشُورَاءَ" بالمد، وحكي عليه القصر، وهو اليوم العاشر من محرم، وقد اختلف أهل الشرع في تعيينه والأكثر على أنه العاشر من المحرم، وانظر كذلك: فتح الباري لابن حجر العسقلاني 288/4 بتصرف.

([40]) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص156، ح2002 كتاب: الصوم، باب: صيام عاشوراء.

([41]) عواطف سلامة، قريش قبل الإسلام.

([42]) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري289/4.

([43]) مسلم، صحيح مسلم: ص، ح1151، كتاب: الصوم، باب: حفظ اللسان للصائم.

طوافٍ بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، ووقوف بعرفات، هذا من حيث الأصل، أمَّا ما اعترى هذه العبادة العظمى من ضلالات وجهالات، فقد أنكرها الإسلام من أول لحظة، فَعَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: **"كَانَتْ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ: قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، كَانُوا يَطُوفُونَ عُرَاةً إِلا أَنْ تُعْطِيَهُمْ الْحُمْسُ ثِيَابًا** ..."[44].

فالحجُّ من أقدم الشعائر الدينية التي مارسها العربُ قبل الإسلام، وذلك منذ قيام دعوة إبراهيم □، والحج من أعظم الشعائر التي أَقَرَّها الإسلام بعدما نقَّاها من دنس الشرك، حيث بقي من شعائر حجهم لبيت الله الحرام: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والتلبية، والوقوف بمزدلفة بدلاً من عرفات، وهي عادةٌ اختصت بها قبيلة قريش دون غيرهم، وحين شرع الله للمسلمين السعي بين الصفا والمروة تحرج الصحابة رضي الله عنهم من ذلك بسبب ما كانوا يفعلونه أثناء سيعيهم، فَعن عُرْوَةَ قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**[البقرة: 158] فَوَاللَّهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، قَالَتْ: **[بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ: لا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ[45] الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ[46]، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ...]**[47].

ثالثًا: اعتكافُهم ونُذورُهم: فقد كان من عادة العرب الحسنة قبل الإسلام أنهم يعتكفون أحيانًا ف أماكن مشروعٌ الاعتكاف فيه، مثلما وقع لأمير المؤمنين عمرَ رضي الله عنه قبل إسلامه، حيث نذر أن يعتكف فأُمر أن يفِ بنذره، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ النَّبِيَّ قَالَ: كُنْتُ نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، قَالَ: **"فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ"**[48].

قال ابن حجر: "المراد بقول عمر "في الجاهلية" قبل إسلامه، لأن جاهلية كل أحد بحسبه، وَوَهم من قال: الجاهلية في كلامه زمن فترة النبوة، والمراد بها هنا ما قبل بعثة نبينا محمد، فإن هذا يتوقف على نقل، وقد تقدم أنه نذر قبل أن يسلم، وبين البعثة وإسلامه مدة"[49].

([44]) مسلم، صحيح مسمل: ص:881ح1219، كتاب: الحج، باب في الوقوف، ثم أفيضوا من حيث أفاضوا الناس.

([45]) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 367/4 وفيه: مناة الطاغية: بفتح الميم والنون، وهو صنم كان في الجاهلية، يوقف عليه بالتاء وإن كان آخره هاء.

([46]) ياقوت الحموي، معجم البلدان 159/5 المُشَلَّل: الشلُّ، الطَّرْد، وهو جبل يُهبط منه إلى قُدَيد من ناحية البحر.

([47]) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص129، ح1643 الحج، باب وجوب الصفا والمروة.

([48]) البخاري، صحيح الإمام البخاري ص158، ح2030 كتاب: الاعتكاف، باب: الاعتكاف ليلًا.

([49]) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلان: 592/11.

وهذه النذورُ والاعتكافاتُ كانت تقع منهم على قلتها أيام جاهليتهم، مما يدل على أن القوم بقيت فيهم بقيةُ من خير، فهم أبناء إسماعيل عليهم السلام، وقد كان فيهم بعضُ [50] الخَيِّرين يأمرونهم بالخير على وجهه العام، دون وحيٍ من السماء، وهذه العبادات [النذر، والاعتكاف] مما أقره الإسلام من أمور الجاهلية، فقد أسلموا على ما أسلفوا من خيرٍ، فقد بقي النذر مشروعًا بضوابطه، وكذلك الاعتكاف.

رابعًا: صدقتُهم وعتقُهم، كان العقلاءُ من أهل الجاهلية يتعبدون بالصدقة، وغيرها، دون وحيٍ أو رسولٍ؛ وإنما هو فضلُ اللهِ يهدي إليه من يشاء، وكانْ فيهم[51] من يتصدق بمالِه من أجلِ إحياءِ الموءودة؛ فيكفي أهلَها مئونتها حتى تكبر، ثم يعيدها إلى أهلها إن شاءوا، ومن هؤلاء العقلاء الموفَقين حكيم بن حزام رضي الله عنه، فقد تصدَّق، وأعتقَ، ووصلَ الرَّحم، فعن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ[52] بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: صلى الله عليه وسلم: **[أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ]** [53].

ولقد أوضح حكيم بن حزام رضي الله عنه نوعَ الصدقةِ التي كان يتصدق بها في حديث آخر، حيث روى مسلم عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رضي الله عنه **[أَعْتَقَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ رَقَبَةٍ، وَحَمَلَ عَلَى مِائَةِ بَعِيرٍ...]** [54]، قال النووي: "معناه تصدق بها"[55].

ويظهر أنَّ عتقَ الرقاب كان من عاداتهم المؤصلة في الناس في زمن الجاهلية، حتى إنَّ بعضَهم ليُوصي أن يُعتق عنه مئة رقبة [56]، وقد وقع العتق أيضًا من أكابر مجرمي [57] القوم آنذاك، وهذا الخير الذي كان يفعله بعضُ الناس في الجاهلية مما أقرهم الإسلامُ عليه، وامتدح فاعليه.

([50]) كان من هؤلاء: زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وورقة بن نوفل وغيرهم.

([51]) منهم: زيد بن عمرو بن نفيل زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، والدُ سعيدِ بن زيد أحدِ العشرة المبشرين بالجنة، ابن عم عمر بن الخطاب، انظر: ((الإصابة في تمييز الصحابة)) 613/2، رقم2925 والأحاديث تدل على توحيده.

([52]) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر 449/1 وفيه: "أَتَحَنَّث" أصلها من حَنِثَ وهي في اليمين: النقض والنكث، وكأنه من الحِنث: الإثم والمعصية، ويتحنث: أي يفعل فعلاً يخرُج به من الإثم والحج، وهو التعبد والتبرر كما فسره ابن إسحاق في رواية البخاري، وانظر كذلك: فتح الباري شرح صحيح البخاري 354/3 وصحيح البخاري: ص507، ح5992] بتصرف.

([53]) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص113، ح1436 الزكاة، باب من تصدق في الشرك ثم أسلم.

([54]) مسلم، صحيح مسلم: ص699، ح123 الأيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم.

([55]) النووي، شرح صحيح مسلم للإمام النووي 419/1.

([56]) وقع هذا للعاص بن وائل، حيث أوصى أن يعتق عنه مائة رقبة، فأعتق عنه بنوه من بعده، كما في سنن أبي داود.

([57]) وقع هذا من أبي لهب حين أُخبر بميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتق ثويبة كما في صحيح الإمام البخاري، ح5010.

٣- جانب التشريع

لم أرَ للناس قبل الإسلام -في جانب التشريع [58]- ما يُحمدوا عليه، ولا ما أقرهم الإسلام عليه، فقد كان القومُ يُحلون ما يشاءون ويُحرمون ما يشاءون، وفق رغباتهم وأهوائهم، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: **"إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلاَثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ، {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 140] إِلَى قَوْلِهِ {قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}** [الأنعام: 140]"[59].

غيرَ أني مع البحث وجدتُ أنهم قد ارتضوا حلًا شرعيًا فيما يقع بينهم من مشاجرات يُسفك فيها دمٌ لا يُعرف قاتلُه، وهو الذي يُسمَّى ب **[القسامة]** [60] وإنَّ أول قسامة وقعت في الجاهلية كانت في بني هاشم، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: **"إِنَّ أَوَّلَ قَسَامَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَفِينَا بَنِي هَاشِمٍ"**[61].

وقد أقرَّ الصحابة النجباء، والتابعون الأجلاء، والعلماء من بعدهم الحكمَ بالقسامة، وقد عدَّها الإمام مالكٌ من الإجماع الذي انعقد عند من سكن المدينة النبوية على ساكنها أفضل صلاة وأتم تسليم، وقد عمل بها قومٌ من الصحابة منهم عبد الله بن الزبير، ومعاوية وغيرهما"[62].

وقد أقر رسولُ الله القسامة على ما كانت في الجاهلية وقضى بها، فعن أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ مَوْلَى مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الأَنْصَارِ: **"أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَقَرَّ الْقَسَامَةَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ"** وَزَادَ ابْنُ شِهَابٍ من طريق آخر: **"وَقَضَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ نَاسٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فِي قَتِيلٍ ادَّعَوْهُ عَلَى الْيَهُودِ"** [63].

٤- الأخلاق والعادات

"الأخلاق عماد المجتمع، والدِّين لا يعدو أن يكون معاملة بين الناس وخالقهم، وبين الناس بعضهم ببعض. وما دامت العلاقة بين أهل الجاهلية وربهم قد فسدت، واعتراها

([58]) هذا بشكل عام إجمالي، غير ما سيرى القارئ الكريم في السطور القادمة.

([59]) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص288ح3528 كتاب: المناقب، باب: جهل العرب.

([60]) "القَسَامة" حقيقتها أن يُقسم من أولياء الدم خمسون نفرًا على استحقاقهم دم صاحبهم، إذا وجدوه قتيلًا بين قوم، ولم يعرف قاتله، فإن لم يكونوا خمسين، أقسم الموجودون خمسين يمينًا، ولا يكون منهم صبيٌّ ولا امرأةٌ، ولا مجنون... انظر: [النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 61/4، التعريفات للجرجاني ص224].

([61]) البخاري: صحيح الإمام البخاري ص312، ح6845 كتاب: المناقب، باب: القسامة في الجاهلية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه قصةٌ طويلة.

([62]) وموضوع القسامة والعمل بها فيه أَخْذٌ وَرَدٌّ. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: 241/12 بتصرف.

([63]) مسلم: صحيح مسلم، ص972، ح1670 كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: القسامة.

الشرك من كل مكان، فالنتيجة الطبيعية أن تفسد العلاقة بينهم، إلا القلة القليلة من الأخلاق والعادات المحمودة التي ورثوها عن شرعٍ سابق أو عرفٍ متوارث"[64].

يقول الإمام ابن تيمية –رحمه الله–: "فغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب للسخاء، والحلم، والشجاعة، والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة. لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، مُعَطَّلَةً عن فعله، ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي إلا بقايا الحنيفية السمحة..."[65]، ويشهد لهذا أنَّ النبي ذكر أنَّ من أهل الجاهلية من هم خيارٌ شرفاء، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: (**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ إِذَا فَقِهُوا...**) [66].

ومن الأخلاقِ التي أقرَّها الإسلامُ ما يلي:-

أولا: صلة الرحم، لا يخلو مجتمعٌ من أناس يشعرون بالآخرين، فيحاولون رفع الهمِّ عن كواهلهم، ويصلون الرحمَ الذي بينهم، وكان من هؤلاء حكيم بن حزام، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: **أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ)** [67].

ولم يكن حكيمُ بن حزام هو المشهور بهذه الأخلاق وحده، وإنما شاركه فيها عبد الله بن جدعان، فقد كان يصل الرحم، ويطعم المسكين، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدْعَانَ [68] كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: **[لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ]** [69].

ثانيًا: الحِلْفُ في الجاهلية، كان أهل الجاهلية كان بينهم أحلاف ومعاهدات تقوم بناءً على مصالح تتحقق لهم من وراء هذه الأحلاف والمعاهدات، وقد أقرهم الإسلام على أحلافهم التي لا تخالف أمرًا شرعيًا، هذه الأحلاف التي وقعت في الجاهلية وشهدها النبي: حلف الفضول [70]، فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

([64]) وائل محيي الدين الزرد: مظاهر الجاهلية كما تصورها نصوص السنة النبوية.

([65]) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم: ص145، بتصرف.

([66]) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص285، ح3496 كتاب: المناقب، باب: قول الله يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى.

([67]) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص113، ح1436 كتاب: الزكاة، باب: من تصدق في الشرك ثم أسلم.

([68]) ابن جُدْعان: هو عبد الله التيمي، مات قبل الإسلام، كان مشهورا بكرمه وعطائه. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة 39/4.

([69]) مسلم، صحيح مسلم: ص717، ح214 كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمله.

([70]) حلف الفضول: كان هذا الحلف بعد حرب الفِجَار، وكان السبب في هذه الحرب الضروس قَتْلُ رجل واحد. فتداعت بعدها قريش لإبرام هذا الحلف، وكان من شروطه ألا يجدوا في مكة مظلوما إلا نصروه. انظر: (سيرة ابن هشام) 123/1 بتصرف.

بْنِ عَوْفٍ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: **شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ**"[71].

وهذا الحلفُ دلالةٌ على أنَّ الحياة مهما اسودت صحائفُهَا، وكلحت شرورُها، فلن تخلوَ من نفوس تمزها معاني النبل؛ ففي الجاهلية الغافلة نهض بعضُ الرجال من أولي الخير، وتواثقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب الظلم، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم"[72].

ثالثًا: الرقى في الجاهلية، وقد كانت الرُّقى مشهورةً بين أهل الجاهلية، حتى إنَّ المسلمين عرضوا على رسولِ الله رقاهم التي كانت في الجاهلية؛ حتى يبين لهم المقبول منها من المردود، وقد أقرهم على بعضها، فعنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: **[اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لا بَأْسَ بِالرُّقَى، مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ]** [73].

رابعًا: الشجاعة والاستحياء من الفرار، لقد عُرف العربُ بشجاعتهم، وبطولاتهم، ولكن هذه البطولات الشهيرة، والشجاعة المعروفة كانت غالبًا في الباطل، وكان الاستحياء من الفرارُ أحيانًا يمثل البيت الذي قتل صاحبه، فعن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: "لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ مِنْ حُنَيْنٍ...، بَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ [74]، قَالَ: فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي جُشَمٍ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا عَمِّ، مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ أَبُو عَامِرٍ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ: إِنَّ ذَاكَ قَاتِلِي، تَرَاهُ ذَلِكَ الَّذِي رَمَانِي. قَالَ أَبُو مُوسَى: فَقَصَدْتُ لَهُ، فَاعْتَمَدْتُهُ فَلَحِقْتُهُ، فَلَمَّا رَآنِي؛ وَلَّى عَنِّي ذَاهِبًا، فَاتَّبَعْتُهُ، وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: **أَلا تَسْتَحْيِي؟! أَلَسْتَ عَرَبِيًّا؟! أَلا تَثْبُتُ؟!** فَكَفَّ، فَالْتَقَيْتُ أَنَا وَهُوَ، فَاخْتَلَفْنَا أَنَا وَهُوَ ضَرْبَتَيْنِ، فَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ...) [75].

فها أنت ترى أبا موشى الأشعري لم يجد حيلةً لإيقاف العربي الهارب إلا أن يذكره ببعض أخلاقيات العرب من كونهم لا يفرُّون، بل إنهم يستحون من ذلك، وفعلًا قد حدث لأبي موسى ما يريد، فثبت العربي الهارب حياءً من أن يؤثر عليه فرارٌ من أرض المعركة؛ فكان حتفُه بذلك.

([71]) أحمد، مسند الإمام أحمد [190/1] وإسناده صحيح، وقد صحح الحديثَ الشيخ أحمد شاكر، فقال: إسناده صحيح (300/2) ح1655. وقال الحاكم في المستدرك: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال: صحيح. وكذا قال الشيخ شُعيب في تحقيق صحيح ابن حبان.

([72]) الغزالي، فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص76.

([73]) مسلم، صحيح مسلم: ص1068، ح2200 السلام، باب لا بأس في الرقى ما لم يكن فيها شرك عن عوف بن مالك الأشجعي.

([74]) أبو عامر: هو عبيد بن سليم بن حضار الأشعري، وهو عم أبي موسى وهو الأشهر. شهد أحدا، يعرف بعبيد السهام، قتل يوم حنين، ودعى له رسول الله لمّا أخبر بقتله. انظر: (الاستيعاب) لابن عبد البر 1017/3، 1704/4.

([75]) مسلم، صحيح مسلم ص1117، ح2498 فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين.

وهذا أبو سفيان رضي الله عنه يقول في أيام جاهليته حين وقف أمام هرقل: " **فَوَاللَّهِ لَوْلا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ...**"[76].

فأبو سفيان –رضي الله عنه– هنا يخشى أن يؤثر عليه الكذب فيعير به لاحقًا بين العرب، وما ذاك إلا لأنه مذمةٌ لا تليق بالرجال، ولولا أن الكذب عارٌ يُذم به المرء لكذب، ويلاحظ هنا أنه ترفع عن الكذب حتى على عدوه آنذاك، وهذا من عظيم مكارم الأخلاق، أن يبقى المرء مستمسكًا بأخلاقه ثابتًا على مبادئه حربًا وسلمًا، فالأخلاق لا تعرف الزمان ولا المكان، وليس لها لون معين، وهي ليست خاصة بجنس أو دين أو قوم وإنما هي تصرفات تظهر على جوارح المرء بروية وتؤدة بناءً على ما يعتقد.

يقول الأستاذ/ محمد الناصر: [والواقع أن القيم الرفيعة والخلال الحميدة، انتشرت بين العرب في الجاهلية انتشارًا واسعًا، عجَّت بها أشعارُهم، وسارت فيها أخبارُهم، وكان من هذه الخلال ما اجتمعوا عليها أو كادوا، وكان منها ما تحلى بها الكثيرُ منهم، ومن أهم ما اجتمعوا عليه ثلاثٌ: الكرم والشجاعة والغيرة، وأمَّا التي تحلى بها الكثيرُ منهم فمنها: العفةُ والترفعُ عن الدنايا، ومنها الصدق والوفاء، ومنها حفظ السر والترفع عن جليس السوء.. ومنها الحلم والرزانة وغير ذلك، على أن القوم ساد بينهم بعض القيم الوضيعة والأخلاق الذميمة، فكما كان منهم الأوفياء الصادقون، كان منهم الغدارون والكذابون، وكما كان منهم الأوفياء وحفظة العهود؛ كان منهم الخونة واللصوص والبخلاء"[77].

قد أقر الإسلامُ أهلَ الجاهلية على بعضِ صفاتهم التي اشتُهروا بها، ونهاهم عن كثيرٍ من صفاتهم وعاداتِهم المذمومة، وقد كان العربُ قبل الإسلام يعيشون مثلهم مثل أي مجتمع، فيهم الخير والشر، غير أنَّ صفة الشرِّ فيهم هي الأظهر والأعم، وليس هذا بغريبٍ عن مجتمعٍ ليس فيه من يأمرُ بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فليس فيهم نبيٌّ ولا وارثُ علم، إلا بقايا من ميراثِ الحنيفية دينِ إبراهيم عليه السلام، وقد مرَّ على هذا مئاتُ السنوات الطوال.

يقول الأستاذ محمد قطب: "هذه بعض الفضائل التي كانت في الجاهلية، ولكن لم يمنع عنها صفة الجاهلية التي وصفها بها رب العالمين، وليس من الظلم في شيء وصف الجاهلية بأنها جاهلية، على الرغم من الخير الجزئي الذي تشتمل عليه، وعلى الرغم من اشتمالها على خيار من الناس، لا يُشك في وجود الخير في نفوسهم. وعمل هؤلاء جميعا ضائع في الآخرة غير مقبول منهم، بسبب إشراكهم بالله سبحانه وتعالى **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** [الفرقان: 23]"[78].

ومن أخلاقِهمُ الحياءُ، وهو أمرٌ قد يُستنكرُ ممن عُرف عنهم البغاء والزنا، ولكن مع الدراسة يتبين أن هذه

([76]) البخاري، صحيح الإمام البخاري: ص1، ح7 كتاب: بدء الوحي، باب: بدء الوحي.

([77]) محمد الناصر: أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام، مجلة البيان (18/24).

([78]) محمد قطب: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص21 بتصرف.

العادات القبيحة الناقصة كان يقترف إثمها الإماء والعبيد لا الحرائر والأسياد، فالحرة عندهم لا تزني، والسيد يتعفف أن يقارفَ ماؤه أمَةً تصبح به حرةً، فقد رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: " جَاءَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتُبَايِعَهُ، فَنَظَرَ إِلَى يَدَيْهَا فَقَالَ لَهَا: **[اذْهَبِي فَغَيِّرِي يَدَكِ]**. قَالَت: فَذَهَبَتْ فَغَيَّرَتْهَا بِحِنَّاءٍ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **[أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقِي وَلَا تَزْنِي]**. قَالَتْ: أَوَ تَزْنِي الْحُرَّةُ؟[79].

وفي رواية الحازمي للقصة، قالت: **[لَقَدْ كُنَّا نستحيي مِنْ ذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ فِي الْإِسْلَامِ؟]**[80].

فما أحوج المرأة على مَرّ الزَّمَان إلى هذا الْخُلُق النَّبيل، والوصْف الكريم، ذلك أنه لا يُوصَف أحَدٌ – على وَجْه الْمَدْح – بِقلَّة الْحَيَاء، وإنما يُذَمّ مَن يُذَمّ بِقلَّة الْحَياء.. وصَفَاقة الوَجْه.. والوَقَاحَة، وإذا كان نساء العرب في الجاهلية قبل الإسلام يتعفنن عن الزنا والبغاء، فما أحوج نساء العرب في الوقت الحاضر أن يسلكن سبيل العفة والطهارة بعد أن أنقذهن الله تعالى من حمئة الجاهلية الأولى، وألا يجلبن لأهلهن جاهلية أخرى، هي أسوأ وأقبح من الجاهلية الأولى **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34)}** [الأحزاب: 33، 34] .

كان العرب أمة أمية، قلَّ فيهم الحاسب والكاتب، وكانوا بعيدين عن الحضارات العريقة في فارس والروم ومصر، فكانوا كالمادة التي لم تتناولها يَدُ الصانع، فحافظت على أصلها ومعدنها، فالحضارة ـــ وإن كانت علماً واستنارة وقوة تنظيم، إلا أنها لا تخلو من تلوُّثٍ وتَكَاثُرٍ للألوان والأحوال، يغيب معها اللون الأصيل والحال الأول، والحضارة عطاء لا يخلو من استهلاك ونزيف وإنهاك، ولا سيما كلما أمعنت الشعوب في الحضارة غير الربانية، فإنها تجد نفسها أمام ركام من الأنماط والعادات، وتتوجه نحو الشهوات والملذات، ويقل في أبنائها عنصر الإقدام والجرأة والتضحية.

فهم أول المستجيبين للإسلام، إذ لم تكن لهم دولة ولا حضارة، وكانوا يعيشون على أطلالٍ وذكريات تربطهم بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهم نَسبٌ وصِهرٌ لهذين النبيين الكريمين، جمعوا في أنفسهم وفطرتهم بين نقاء الأصل وكرم المعدن وعظمة الاستعداد من جهة، وبين ضياع الهدف، وجاهلية السلوك والاعتقاد والتشريع من جهة أخرى، وكانوا يتحركون بين هذين النقيضين، فتارة يشدهم كرمُ الأصل ونقاءُ الفطرة، وطوراً يقعون في حمئة الجاهلية وأرجاسها، إلى أن جاء الإسلام العظيم فخلصهم من أرجاس الجاهلية، و كشف عن استعداداتهم الكامنة ومعادنهم الكريمة.

لقد التقى الإسلامُ بعقيدته الواضحة وشريعته الكاملة مع العربِ الذين لم يخوضوا تجاربَ حضارية معقدة قبل ذلك، فكان اللقاءُ لقاءً فجَّرَ طاقاتِ تلك الأمةِ الوليدةِ

(79) أبو يعلى الموصلي: مسند أبي يعلي [194/8] وفي سنده من لا يُعرف من النساء، ولكنَّ القصة مشهورة ذكرها كثير من العلماء.

(80) ابن حجر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني: [151/4] وقال: مرسلٌ.

الجديدة، والتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدر، والحمدُ لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

*** خاتمـــــــــــة**

فقد بان لنا من خلال البحث أنَّ أهلَ الجاهلية على ما فيهم من شر وضلال، غير أنهم ما عدموا الخير والصواب، وقد يسَّر الله الوصول إلى بعض النتائج التي يمكن تلخيصها فيما يلي:-

١- عند الحكم على الناس يجب أن ننظر إلى ما في الناس من حسنات وسيئات.

٢- لا يخلو مجتمع مهما كان سيئًا من جوانب إيجابية خيرية.

٣- من الظلم الحكم على مجتمعٍ كاملٍ بأنه شرٌّ لا خيرَ فيه.

٤- يجانب كثيرٌ من الكُتَّاب الصوابَ حين يصفون العربَ أيام الجاهلية بكل قبيحٍ دونَ النظر إلى ما عندهم من خيرٍ وصوابٍ يُقرون عليه.

٥- في العالم الغربي اليوم كثيرٌ من الخير على كثيرٍ من المستويات، من الممكن -دعويًا- البناء عليه حين دعوتهم.

وأوصي بما يلي:-

١- البعد عن التعميم البغيض للحالة التي يعيشها الغرب اليوم، وضرورة ذكر الناس بما فيهم من خير فإنه أدعى لقبول دعوتنا لهم بالتي هي أحسن.

٢- دراسة الشخصيات التي أطلق عليهم مصطلح [الحنيفيون] في زمن الجاهلية.

٣- دراسة الأحاديث التي أثبتت لبعض العرب في الجاهلية الجنة أو النار، مع محاولة التوفيق بينا وبين الآيات المحكمة القاضية بعدم عذاب من لم يرسل لهم رسولٌ.

*** المراجع**

القرآن الكريم

ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، (1979) *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، بيروت، الناشر: المكتبة العلمية.

ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، *اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم*، دار عالم الكتب بيروت، الطبعة السادسة 1417 هـ.

ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، *فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية*، مجمع الملك فهد، المملكة العربية السعودية 1416 هـ.

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، (1379 هـ) *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة.

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، (1415 هـ) *الإصابة في تميز الصحابة*، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، *التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي*

الكبير، مؤسسة قرطبة مصر، الطبعة الأولى 1416 هـ.

ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي، (1992) *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق: علي محمد البيجاوي، ط1، بيروت: دار الجيل.

ابن فارس: أحمد بن فارس القزويني الرازي، (1979) *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

ابن منظور: أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين بن منظور، (1414 هـ) *لسان العرب*، ط3، بيروت: دار صادر.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام: *سيرة ابن هشام*، تحقيق: عبد الرؤوف الحلبي، شركة الطباعة المتحدة مصر.

أبو العلا، محمد بن عبد الرحمن، *تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي*، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

أبو يعلي، أحمد بن علي الموصلي، *مسند أبي يعلي الموصلي*، دار المأمون دمشق، الطبعة الأولى 1404 هـ.

أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (1421 هـ) *مسند الإمام أحمد*، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

الألباني: أبو عبد الرحمن محمد بن ناصر الدين، بن الحاج نوح الأشقودري الألباني، (1995-2002) *سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها*، ط1، الرياض مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

أنيس إبراهيم، *المعجم الوسيط* – مجمع اللغة العربية بالقاهرة – دار الدعوة

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، (1422 هـ) *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيامه = صحيح البخاري*، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة.

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي الخراساني البيهقي، (1405 هـ) *دلائل النبوة*، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

الجرجاني: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (1983) *كتاب التعريفات*، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط1، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية.

الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (1995) *معجم البلدان*، ط2، بيروت: دار صادر.

الخالدي، الدكتور صلاح الخالدي، *التفسير الموضوعي*، طبعة الأردن.

الزرد، الدكتور وائل محيي الدين الزرد، *مظاهر الجاهلية كما تصورها نصوص السنة النبوية*. رسالة ماجستير.

السرجاني، الدكتور راغب السرجاني، *السيرة النبوية*، http://www.islamweb.net

سيد قطب، *في ظلال القرآن*، لسيد قطب، دار الشروق بيروت والقاهرة، الطبعة السابعة عشرة 1412 هـ.

الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، *تفسير الشيخ الشعراوي*، مطابع أخبار اليوم، نشر عام 1997 م.

شمس الحق، شرف الحق العظيم آبادي، *عون المعبود شرح سنن أبي داوود*، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية 1415 هـ.

صالح بن عبد العزيز، *موسوعة الحديث الشريف، الكتب الستة*، إشراف ومتابعة: الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ – دار السلام للنشر والتوزيع – الرياض.

الطاهر بن عاشور، محمد بن الطاهر بن محمد الطاهر عاشور، *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر-تونس 1393

الغزالي، الشيخ محمد الغزالي-المعاصر- *فقه السيرة*، دار القلم دمشق، تحقيق الشيخ الألباني، الطبعة الأولى 1427 هـ.

الغضبان، الدكتور منير الغضبان، *المنهج الحركي للسيرة النبوية*، دار الفكر، بيروت.

الغضبان، الدكتور منير الغضبان، *فقه السيرة النبوية*، دار القلم دمشق.

قريش قبل الإسلام لمجموعة من المؤلفين، القاهرة 1422 ه ـ

قطب، الأستاذ محمد قطب، *جاهلية القرن العشرين*، طبعة مصر.

قطب، الأستاذ محمد قطب، *رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر*، طبعة مصر.

محمد بن عبد الوهاب، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، *مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية*- رسالة ماجستير في المدينة المنورة.

مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

المكتبة الشاملة "**CD**" وهو الإصدار 3.61 برنامج برعاية مكتب الدعوة بحي الروضة http://www.arrawdah.com/dim/ofinf.

الناصر، الأستاذ محمد الناصر، *أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام*.

نزار، الدكتور الشهيد نزار الريان، مذكرة غير مطبوعة.

النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، (1392 هـ) *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*، ط2، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الهيثمي، أبو الحسن نور الدين الهيثمي، *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*، دار الفكر بيروت، 1412 هـ.